وحدة الأمة ووحدة الأسرة

للشيخ محمد أمين هلال

أدب واجتماع :

فى الوقت الذى انحرف فيه كل شيء من الأشياء عن وضعه ، حتى تطرق الفساد إلى كل معنى وانبعث الاضطراب فى كل ذات ، لما زلزلت الأرض للشر ، وانفطرت السماء بانفجار الدواهى على الناس ، فى هذا الوقت أذن الله لهذا الشرق العربى أن ينبعث من مرقده كما ينبعث الربيع الى الحياة ، أو يهتدى الغريق الى طريق النجاة ، فرأى أبناء العروبة مسافة البعد بين ماضيهم وحاضرهم ، وأدركوا أنهم وحدهم الذين يملكون بقوة إرادتهم وصدق اقدامهم إصلاح حالهم ، فهبوا يتنادون الى "الوحدة بين أبناء العروبة" ويعملون جاهدين على لم الشعث ورأب الصدع ، بهذا البلسم الذى لا علاج سواه : الوحدة فى وجهتهم والامتزاج ، ولو توعر الطريق وتجافى الرفيق . نعم : استيقظوا على صحيج رحا هذه الحرب بعد أن طال نومهم وانمحى من قانون السياسة الدولية أمرهم . فأبلغوا إذن الدنيا أن العروبة إذا اتحدت كانت أساسا لنهضة الشرق ، وإذا نهض الشرق كان بطبعه وتاريخه أكبر معوان للغرب فى نشر الحضارة وبسط ظلال السلام فى الأرض ، وكان ذلك وقاية من مثل هذه الحرب الغشوم التى أبطلت كل قوة وعطلت كل عدة ، وددت هذا العالم بخريب الأسلحة : تؤيد الطغيان ، وتدافع الحق وتؤيد جبارا عنيدا يحاول قلب الأوضاع واستعباد الأجناس وهدم ما تعورف من تقاليد وأديان .

ومن محاسن الصدف أن نجد مصر العزيزة هى التى كانت الداعية لهذه الوحدة المباركة ، وإلى أرضها الخصبة حضرت الوفود وتآمرت ثم توحدت فى الغايات والسبل كما توحدت من قبل فى الشعور والأمل ، بعد أن علموا أن القوة والاتحاد لا يغنى عنهما الابتهال والاستجداء ، ولا يتعزى بدونهما بالبكاء والدعاء ، فتلك صغائر لا ترفع الواقع ولا تدافع الموت .

ولا عجب فمصر بما وهبها الله من مركز متوسط بين ثلاث قارات كبرى ومناخ معتدل وأرض خصبة وشعب ذكى عريق فى الحضارة ذى ميول سلمية ، فضلا عما لها من مركز ممتاز بين بلاد الشرق العربى حيث كانت ولن تزل حرما آمنا لأبنائه على اختلاف أقطارهم وما لها من حاضر مشرق بهيج ، مصر بكل هذه المميزات استطاعت وتستطيع دائما أن تكون عاملا مؤثرا فى المجتمع الدولى . يقام لها وزنها وتحترم مكانتها .

هذا وما اليه دعا أبناء العروبة إلى أن يشدوا عضدها ليسيربهم إلى الأمام يحدوهم الإصرار على الحزم والإقدام ، وفى الإصرار عليه الثقة بالبقاء مهما بلغ الفداء ، ولا أحق من أبناء العروبة من غريزة الكفاح ، التى انحدرت إليهم من أجدادهم وفهموا أن من معانيها التبصر والعمل والانتصار ، وأن المسير فى نظر الضعاف المفاليك سهل ميسر أمام أولئك الذين حرصوا على الموت فوهبت لها الحياة .

إننا ونحن على ثقة من أن هذا التوحد القومى سيؤتى ثمرته من ارجاع مجد العروبة وحماية أقاليمها من ذئب يتنمر ، نداعب آمالا جساما ونراوح خواطر كريمة فى أن حلفاءنا حلفاء الديمقراطية سيسارعون فى تحقيق مبادئ هذه الحرية ، وموازين هذه العدالة التى نسمع ألحانها خلال قصيف المدافع وأزيز الطائرات ، وليس أولى بالعدالة والانصاف من شعب كان لأسلافه الفاتحين من العز والسلطان ما يعد مفخرة لبنى الانسان ، ومن العلم والحضارة ما تغنى به الحداة وبلغ من الفخر منتهاه .

ومهما يكن من شئ فان هذا المشعل الذى حمله مصر مع شقيقاتها لن يخبو نوره ، لأن سنة التطور تأبى أن يعيش هذا العالم فى ظلام ، وقد استقر مطلع الحضارة فى الشرق قرونا ولمعت على ضفاف النيل ودجلة ، و"بردى" أول ومضات النور والعلم والخلق ، وما نراه من اتحاد العروبة سيحطم كل ما يلقى فى سبيلها من أغلال ، وستبنى لنفسها مجدا دائم الأثر ثابت البنيان ، كما بنى الأجداد السالفون .

وقد الحمد والشكر على تحقيق هذه الوحدة التى كانت تراوح وتعادى أحلامنا وبخاصة أن أشرفت على الغاية فى هذه الأيام التى تؤذن بعودة السلام الى العالم فتهيأ الأسباب لتوثيق عراها هذه الأمة حين يحلق زعماء الأمم لإقرار السلام الدائم واختيار النظام الملائم .

٢ — وبعد : فما أحب الينا من أن نرى وحدة فى الأسرة المصرية كما رأينا تآلفا فى الأسرة العربية ، اذ أن هذه الأسرة الصغيرة لبنات فى بناء الأمة ، وبقدر صلابة اللبنات وتنسيق وضعها فى هذه البنية يكون البناء شامخا متينا يعلو على المتطاول .

حقا ان الأسرة مملكة صغيرة يحكمها الأب وتدير شئونها الأم وجنودها الأبناء والاخوات ومن اليهم . فاذا رأيت أسرة ترفرف عليها السكينة وتغمرها السعادة وتحيط بها المهابة والاجلال ، فاعلم أن ذلك ناشئ من تناصر أفرادها وتراحم أبنائها وتكاتف صغيرها وكبيرها وبالعكس . اذا شاهدت بيتا تصوحت أزهاره وتناكرت أبناؤه فذلك لأن أفراده ركبوا رءوسهم وجعلوا لشياطين الأنس مكانا فى أذانهم فتخطفهم الناس .

كان لنا نحن المصريين فى ارتباط "عائلة" وتوقير كبيرها والاشفاق على صغيرها ، شأن أى شأن حتى بلغ من توادها أن أعضاءها ما كانت تعرف بعد أعمالها المعيشية غير معبدها ومنزلها : تؤدى فى ذلك واجب ربها وفى هذا واجب التعاطف والمحبة نحو من يشملهم هذا المنزل : فهناك والد يداعب ولده الصغير ويرشد الكبير ويؤدى أمامه واجب الدين ويلتمس من روح السلف ويقتبس من وحى الله ما ينشؤهم على الصراط المستقيم ، وتلك أم تغذى أولادها بمكارم الأخلاق ولا تفتأ جارة فى القيام بخدمة المنزل بما يكفل السعادة لا كهؤلاء النسوة اللاتى استبحن لأنفسهن أن يهجرن المنازل الى مزاحمة الرجال فى مجتمعات هازلة ممنوعة من شأنها أن تؤدى الى تحريك الانفعالات التافهة والشهوات الجامحة ، أكثر مما تؤدى الى ما تتهذب به النفوس أو تتحقق به فائدة من فوائد الحياة رغم ما يتشدق به الماجنون ، لذلك كانت الأسرة المصرية كجسم واحد حلت فيه أرواح العائلة فاحترم جانبها وتكون منها شعب عظيم استطاع ولاة أموره أيام الصليبين والتتار بل وأيام البطل المصرى ابراهيم باشا أن يتخذوا به على معاقل الصليبيين وعلى حدود التتار وعلى أسوار الآستانة فيبرهن للعالم أنه فى مقدمة الشعوب إقداما ونصرا بل وفى الذروة منها كرما ونبلا .

قارن هذا بما هو جار الآن مما يذيب القلوب أسى ويفجع النفس حرة .

(أ) هذا شاب هجر زوجه وأولاده الى فتاة من بنات الهوى ينفق عليها نفيس ماله ويصرف اليها جل أوقاته ويصرف لها ميول فؤاده وأفكاره ، ولا يصل قرش من أجرة عمله الى جيبه حتى يفرغه فى لهو مغازلتها تاركا أولاده يتضاغون ولا يجدون ما ينفقون ، وما كان أولاه أن يجلس اليهم ليكون مثلا عاليا لتربيتهم حتى يشبوا أطهارا لا ينغمسون فى منكر ولا يخفون الى شر ولا يلغون فى حديث ، ما كان أولاه بأن يوثق فى أسرته ماوهن بين القلب والدين ، ويؤلف ما تفرق من القلوب المطمئنة ويوصل ما قطع من الأرحام الشابكة .

(ب) وهذا شيخ قد ابيضت فى رأسه طلائع الشيب وعبثت بقواه يد العجز والهرم ، وتخرمت جسمه الفانى أمراض النساء ، يترك أم أولاده التى عاشرته طويلا ويعمد الى فتاة لعوب يقدمها على مذبح أغراضه وسافل شهواته ، زاعما أن الدين قد أباح له أن يضم الى الواحدة ثلاثا ، ولو كان ذلك يجرع الأسرة سما زعافا ! وقد غفل هذا عن روح الدين الذى لا يأمر بالمنكر ولا يرضى أن يعيش الأولاد أشباه اللقطاء المتشردين أو الأعداء المتشاكسين .

(ج) وهذا رجل دفعته العادة السيئة الى التمرد على الحياة المنزلية كأن فى البيت ظلاما وكأن فى الأولاد موتا زؤاما وكأن فى الزوجة شيطانا مريدا ، فهو دائما قعيد مشارب القهوات ، حليف اللهو بالعابها ، حريص على الغلب فى ميادينها ، لا يبالى : أنام الأولاد أم سهروا ، وشقوا بغيابه أم سعدوا ، تألمت أمنهم أم رضيت ، قعدت فى البيت أم ظعنت . وغفل هذا الحائر المضطرب عن أن الأولاد هم زينة الحياة الدنيا والمصباح الذى يرسله المولى لنور المنزل والعزاء الوحيد على ما يلاقيه الانسان من نكد الدنيا وعنت الحياة ، فما كان أولى له من تذوق هذه السعادة بالقرب منهم ، وأن يصرف إجالة النظر وتقليب الفكر الى تقويم معوجهم وتلقينهم حميدا الخصال ، فان ذلك كان عنه مسئولا وبه كفيلا .

وأما الزوجة التى هجرها من ذكرنا فحسبك أن الخالق جل وعلا جعل من آياته لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة ، ولا شك أن من يأنق منها إلى مشارب القهوات وملاهى العابثات قد غلب هواه عقله ولم يراع هذه النعمة العظمى حق رعايتها ؛ ومثله لا يسمى " أبا " فى عرف القومية ، فشأن الأب أن يكون على ماوصف به الامام العادل : كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها ، يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنها من أذى الحر والبرد ، يسعى لأولاده صغارا ويعلمهم كبارا يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، وليس كعبد أئتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله . كم نأسف من تلك الأشجان الواقعية التى كان من نتائجها البغيضة ما نجد من هذه الحروب الداخلية فى كثير بين أبناء الأسرة الواحدة ، وربما وصلت قضاياها إلى المحاكم فتصرم حبال الأرحام وتقطع وشائج القرابة وتملأ القلوب على الوحشة ، وتنطوى الصدور على البغضة .

وكم نود أن يشعر أفراد هذه الأسر وبالتالى أرباب هذه الأسر بأن هذه الوحدة التى تنادى بها العرب وهتف بها كل لسان ينطق بلغة القرآن ، لا تتحقق تمام التحقق إلا إذا عمل كل فرد فى كل أسرة على الوحدة بين آحادها ، حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أطرافها إلى جمهورها ؛

محمد أمين هلال

المدرس بالقسم الثانوى بالأزهر